الباب الأول
نشأة ابن تومرت الفكرية

الفلسفة الإلهية عند ابن تومرت وأهميتها

مؤلفات ابن تومرت

الفصل الأول
نشأة ابن تومرت الفكرية

موضوع هذا الكتاب هو الفلسفة الإلهية عند محمد بن تومرت وابن تومرت هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي الحسني المنعوت بالمهدي الهرغي، وهو من قبيلة مغربية معروفة تسمى هرنمة من أشراف المصامدة بجبل السوس في بلاد المغرب الأقصى ولابن تومرت نسب يرجع إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ويمكن القول: إن الاختلاف حول سنة مولده لم يمنع ابن خلكان في وفيات الأعيان من محاولة تحديد يوم وليلة مولده حيث ذكر أن ولادته كانت يوم عاشوراء سنة خمس وثمانية وأربعمائة، لكن الصحيح أن سنة مولده كانت بين عامي ٤٦٩، ٤٧٣ هجرية تقريبا وتوفي عام ٥٢٤ هجرية لأن هناك إجماعا يؤكد أن عمْر ابن تومرت كان يتراوح بين ٥١، ٥٥ عاما[١].

وبالرغم من الخلاف حول شخصية ابن تومرت السياسية والحكم عليه كمحارب ومؤسس دولة إلا أنهم قد أجمعوا على أنه كان أوحد عصره في العلم والمعرفة وأنه كان عالما فقيها عارفا بالأصول وعلم الاعتقاد والجدل وكان راويا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، وأن محاولته التأليف بين علم الكلام والدين من خلال عرضه الموجز لقضايا التوحيد والتنزيه والفاعلية والقضاء والعقل والخلق

(١) خير الدين الزركلي: فهرس الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ج٧ ط٢ دار الكتب المصرية ١٩٥٩، ص١٠٤، ١٠٥.

والوجود والقضاء يؤكد بوضوح أثر الغزالي عليه [١].

هذا وقد وصفه ابن خلدون في كتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر، وفي دائرة المعارف الإسلامية بأنه مصلح ديني مراكشي مشهور يعرف بمهدي الموحدين كما تحدث عن أصله البربري فاسمه باللسان البربري: «أسافو بن أمغار» وأسافو معناها الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها، وأمغار كلمة بربرية معناه رئيس، ومعنى ابن تومرت في هذه اللغة ابن عمر الصغير وهو اسم أبيه الذي كان يدعى أيضًا عبد الله [٢].

وتعتبر المرحلة الأولى من حياة ابن تومرت هي مرحلة اشتغاله بطلب العلم وتحصيله وهذه المرحلة بدأت منذ صغره لأن أهل بيته كانوا أهل نسك وأن والده كان معروفا بعلمه في قبيلته.

وهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين: ما قبل سفره إلى الشرق ثم رحلته العلمية وما حصله من علم على أيدي علماء الشرق.

ففي المرحلة الأولى حفظ ابن تومرت كثيرا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ونبغ في علم الأصول والاعتقادات ودفعه ذلك إلى الذهاب إلى الأندلس وخاصة إلى قرطبة حيث يقال: إنه تشبع بكتابات وتعاليم ابن حزم ت ٤٥٦ هـ [٣].

خاصة في بعض مباحث الإلوهية والتوحيد والقول بالإمامة وفي محاولة توسطه بين الأشعرية والمعتزلة واعتماده على جوهر أشعري وتمثل عقلاني في الإلوهية

---

(١) محي الدين عزوز، التطور المذهبي بالمغرب، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦، ص٧٦، ٧٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، كولان، مقال مصمودة: البربر (١/ ١٠٧، ١٠٩).

(٣) ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والنحل. مكتبة السلام العالمية (٤/ ٧٢، ٧٣).

واستخدام الاستدلال القياسي والتفسير المجازي للقرآن [١].

واستكمالا لهذه المرحلة كان لزاما على ابن تومرت أن يسافر إلى الشرق في طلب العلم بعد أن سمع بالمدرسة النظامية ببغداد. ويعتبر ابن أبي زرع واحد من المؤرخين الذين أكدوا تتلمذ ابن تومرت على الغزالي وأخذ العلم على يديه فيقول:

«ومن العلماء الذين أخذ عنهم العلم الشيخ الإمام الأوحد أبو حامد الغزالي الذي لازمه لاقتباس العلم ثلاث سنين.. وبلغت العلاقة بين التلميذ ابن تومرت وأستاذه الغزالي لدرجة أن تنبأ الغزالي بثورة ابن تومرت في المغرب العربي وإقامته دولته.. فكان أبو حامد الغزالي إذا دخل عليه المهدي يتأمله ويختبر أحواله الباطنة والظاهرة، فإذا خرج عنه يقول لجلسائه: لا بد لهذا البربري من دولة أما أنه يثور بالمغرب الأقصى ويظهر أمره ويعلو سلطانه ويتسع ملكه فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته وبائن عليه في شمائله وردت بذلك الأخبار ودلت عليه العلامات والآثار» [٢].

ولم يكتف ابن تومرت بما حصله من علم في بغداد فكانت زياراته العلمية لكل من بيت المقدس وزمكة ومصر، كل ذلك قبل المرحلة الأخيرة من حياته وهي مرحلة كفاحه السياسي في بلاد المغرب وموقفه من فقهاء المغرب.

وهذه المرحلة بدأت حوالي عام ٥٠١هـ حيث التقى ابن تومرت في بغداد

---

(١) د. عبد الله العروي. تاريخ المغرب: محاولة في التركيب. ترجمة د. ذوقان قرقوط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ط١ ١٩٧٧، ص١٧٦.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب القرطاس، تحقيق محمد الحاجي، القاهرة ١٩٧٥، ص١١٩، وفي ابن تومرت: أعز ما يطلب، طبعة الجزائر، ١٩٠٣، ص٣٨، ٣٩.

بالشيخ أبي بكر الشاش الذي أخذ عنه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين، كما سمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين وكان ذلك بعد لقائه في الشام بأبي حامد الغزالي والكيا الهراس.

ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة للحج وأقام بها مدة حصل فيها طرفا من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين، وعندما بدأ دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هناك ناله شيء من المكروه وأجبر على الخروج إلى مصر حيث بدأت دعوته وأفكاره في الإلوهية والتوحيد تأخذ شكلا عمليا مؤثرا. وفي مصر أيضًا بالغ في الإنكار وحاول تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصمم على أن يكون له موقف نقدي وعملي في مظاهر الغلو في الدين ومن الظواهر الاجتماعية الفاسدة ومن مرتكبي المنكر والفجور.

وكان من الطبيعي في هذه المرحلة أن يعقد المناظرات ويوجه النقد لكل متطرف وخارج على أصول القرآن والسنة وكان له موقفه من متطرفي المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة والشيعة وخاصة الشيعة الإمامية وقضية عصمة الإمام.

وهذا ما قمنا بتفصيله في الفصل الأخير من هذه الدراسة عن موقفه النقدي.

واستمر ابن تومرت على موقفه ومنهجه في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخاصة أن الشيخ أبو بكر الطرطوش كان على نفس المنهج والاعتقاد في الإسكندرية، فالتقيا بها وأخذ ابن تومرت عن الطرطوش الكثير من علوم الفقه وكان له أيضًا مناظراته في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

---

(١) جمال الدين الشيال، د. أبو بكر الطرطوش -العالم الزاهد- الناشر دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٨ ص٧٠، ٧١.

وفي هذه المرحلة عرف ابن تومرت الفقيه العالم بأصول الشريعة كما عرف بإقباله على العبادة وميله إلى مذهب الأشعري مثل أستاذه الطرطوش حتى قال المؤرخون عنه في هذه المرحلة:

«كان ابن تومرت على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه للعامة شيء»[1].

أما المرحلة الثانية في حياة ابن تومرت الفكرية فتتمثل في مرحلة العودة إلى الشمال الأفريقي وموطنه الأصلي وتنقله بين العديد من المدن بداية من الإسكندرية ثم بجاية وملالة وبنزاره، تنمل، تنمية، سوس، تلمسان؛ مراكش وغيرها.

وكانت ثمرة هذه المرحلة أن ذاع صيته واشتهر علمه واجتمع الناس عليه ومالت إليه القلوب وفي هذه المدن تقدم ابن تومرت للوعظ والإرشاد وتعليم الصغار القراءة والكتابة وتوجيه العامة إلى أصول الدين وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذ كان أهم ما يميز ابن تومرت في هذه المرحلة هو الميل إلى التطبيق العملي للفكر وليس تقديم آراء أو نظريات تقبل الأخذ والرد أو الخلاف والاتفاق.

ولهذا يمكن أن نصف رحلة العودة إلى بلاده بأنها رحلة علم وتعليم لأن ابن تومرت كان يحصل العلم ويمارس التعليم ويقوم بدور المصلح الفيلسوف. الذي تطور فيما بعد ليصبح دور الإمام والراعي المسئول الذي يحصر على تعليم ونقل ونشر كل ما تعلمه.. فقام بتعليم الصغار القراءة والكتابة وحفظ القرآن والحديث وقام بتعليم الكبار أصول الدين وكيفية إحياء السنة ووعظهم وتذكيرهم بأيام الله

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب- طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٩-١٥.

وظلم العباد وفسادهم.. وقام بتعليم الفقهاء ما هو صحيح من الشرائع وأصول الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضرورة استخدام القياس الصحيح.

كما قام بتعليمهم أصول المناظرة وقواعدها وأن الأخذ بالفروع خطأ لذا لا بد من الاعتماد على الأصول والفروع معا والأخذ بالحكمة والشريعة معا والأخذ بعلوم الدين والدنيا معا [١].

وفي هذه المرحلة أيضًا التقى ابن تومرت ببعض الشخصيات العلمية والسياسية التي كان لها دورها وتأثيرها في ذلك الوقت مثل عبد المؤمن بن علي الذي يرجع إليه فضل انتشار دولة الموحدين وعبد الواحد الشرفي ومالك بن وهيب ومحمد بن الأسود من الفقهاء وعلي بن يوسف بن تاشفين ويحيى بن تميم من الأمراء.

وكان ابن تومرت في هذه المرحلة يدعو إلى علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية وهو جديد على أهل الشمال الأفريقي، وإعلان تكفير كل من لا يعتقد التوحيد ولا التأويل ويشيع الفساد والظلم، ثم أعلن أن جهاد المجسمين من المرابطين أفضل من جهاد الكفار لأنهم أنكروا الحق وقال في ذلك:

«حرم الله طاعة المجسمين والمرتدين واليهود والنصارى.. وكل من قتل من الكفرة والمجسمين فهو مخلد في النار وكل من قتل من المؤمنين فهو من أهل الجنة لقول الرسول عليه السلام: «من قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد»» [٢].

---

(١) ابن تومرت: كنز العلوم والدر المنظوم، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٤٤ حكمة وفلسفة سنة ١٣٨٩هـ ص٣١، ٣٣.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، د. محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس، جامعة بيروت العربية بالإسكندرية ١٩٧٣ ص٢٢، ٢٣.

ووصف ابن أبي زرع هذه المرحلة ووصول المهدي إلى المغرب فقال: «أقبل المهدي المذكور من الشرق يؤم بلاد المغرب متوكلا على الله عازما على إقامة شرائع الله وسنة نبيه عليه السلام وكانت رحلته من بلاد المشرق في أول يوم من ربيع الأول المبارك من عام عشرة وخمسمائة فكان حيث ما حل من مدن أفريقية وبلاد المغرب يدرس العلم ويظهر التقشف والورع والزهد في الدنيا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى وصل إلى بلاد تلمسان فنزل فيها بقرية تعرف بتأجيره. من أحواز تلمسان فلقيه بها عبد المؤمن بن علي فانضاف إلى خدمته وقرأ عليه وأخذ عنه العلم وعلم بمراده وما قصد إليه من طلب الخلافة فوافقه على حالة وتبعه إلى المغرب الأقصى»[1].

ويمكن القول: إن ابن خلدون كان في مقدمة الذين نبهوا إلى أهمية الجانب المعرفي في حياة ابن تومرت ولم يقتصر اهتمامه على الجانب السياسي بل أكد على أهمية الموقف النقدي لابن تومرت وشخصيته العلمية حين وصف البيئة العقلية التي عاش فيها ومدى صدقه في دعوته إلى التوحيد.

ومصداقا لذلك يأتي وصف ابن خلدون لابن تومرت وعودته فقال: «كان إماما من أئمة العلم والدين ذا ملكة راسخة وقوة على النظر والجدل بحيث يضاهي كبار الشخصيات العلمية البارزة التي ظهرت في المشرق لعهده من أصحاب المقالات والمدارس في علمي الأصول والكلام فضلا عن تضلعه في الفقه والحديث»[2].

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب، طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٣٩.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. القاهرة ١٢٨٤هـ (٦/ ٢٢٥، ٢٢٦).

وقال واصفا رحلة العودة: «وانطلق هذا الإمام راجعا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة في صدور أهل البدعة -يقصد الغزالي وأبا العباس الجرجاني وأبا بكر الشاش وأبا بكر الطرطوش وغيرهم من فقهاء المدرسة النظامية ببغداد في ذلك الوقت- وأنه ذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت.

فطعن على أهل المغرب ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد... وكان رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة وألف في ذلك كتابه في الإمامة الذي افتتحه بقوله: أعز ما يطلب وصار هذا المفتتح لقبا على ذلك الكتاب»[1].

أما المرحلة الثالثة في حياة ابن تومرت الفكرية فهي مرحلة العمل السياسي والإعداد لإنشاء دولة الموحدين. وهذه المرحلة بدأت منذ استقراره في أيكلين من بلاد هرنمة بجبال المصامدة عندما نزل على قومه وبنى رابطة للعبادة واجتمع إليه شيوخ القبائل وراغبي العلم والمعرفة، فبدأ يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري وأصول الدين وأركانه.

وعندما كثر أتباعه دعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسمين، وكان

(١)ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. القاهرة ١٢٨٤هـ (٦/ ٢٢٥، ٢٢٦).

ذلك عام خمس عشرة وخمسمائة من الهجرة تقريبا.

وكان من أهم ملامح هذه المرحلة:

أ- تكوين جماعة قوية مؤمنة بمبادئ التوحيد قام ابن تومرت بتنظيمهم في جماعات وطبقات على هيئة تشكيل دولة المدينة أيام الرسول عليه السلام وصحابته.

وهذا ما قدمناه تفصيلا في فصل المجاهدة والتوحيد في الباب الثالث.

ب- انتصاره في المناظرات التي عقدها مع الأمراء والفقهاء حول الأصل والفرع والتواتر والآحاد والقياس الفاسد والصحيح [١].

ج- الواقع الديني والاجتماعي المتدهور بسبب تشدد الفقهاء وتحكمهم بفروع الفقه المالكي وإحراق كتب الغزالي وخاصة الإحياء ثم انحطاط الأخلاق وتفشي البدع والخرافات وتبرج نساء لمتونة وكان ذلك من دواعي نجاح ابن تومرت وإعلانه الحرب الدينية على معارضيه من المرابطين والوثنيين والمشركين ومن جهلوا اللغة العربية وعلى كل ما يخالف القرآن والحديث وعلم الأصول والكلام من أخلاق وآراء وعادات [٢].

د- بدء معارك ابن تومرت الحربية ضد المرابطين عام ٥١٧هـ بإرسال جيش بقيادة عبد المؤمن وبعد العديد من الهزائم والانتصارات ضعفت قوة المرابطين وقويت دولة الموحدين في مراكش الأندلس.

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب. طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية. كولان- مقال مصمودة: البربر، (١/ ١٠٨، ١٠٩).

الفصل الثاني
الفلسفة الإلهية عند ابن تومرت وأهميتها

قبل الحديث عن ابن تومرت ونشأته الفكرية أو تفاصيل وعناصر فلسفته الإلهية رأينا ضرورة تقديم فكرة موجزة عن فلسفة ابن تومرت الإلهية من حيث موضوعها وأهميتها، وخاصة أن محمد بن تومرت واحد من المفكرين الإسلاميين الذين لم يأخذوا حظا من الشهرة أو الانتشار وهذا رغم موقعه بين أشهر مفكري الإسلام.. أعني الغزالي ت٥٠٥هـ وابن رشد ت٥٩٥هـ.

ويمكن القول: إن الفلسفة الإلهية في الإسلام بوجه عام تضم مجموعة من المباحث المعرفية والإنسانية التي ترتبط بالأحكام والتكاليف الإلهية، وتضم أيضًا ما قدمه الفلاسفة والفقهاء من تفسيرات وتأويلات لآيات القرآن والحديث حول الذات والصفات والخلق والمعرفة والعلم والإيمان.

وتضم أيضًا ما قدمه أصحاب الفرق الإسلامية من آراء حول هذه المسائل وفي مقدمة هذه الفرق المعتزلة وأهل السنة والخوارج والشيعة والأشاعرة. ومعروف أن هذه الفرق اختلفت فيما بينها حول الفروع وتفصيلات الأصول وبحيث احتلت قضايا الإلوهية والتوحيد جل مذاهبهم ومباحثهم[1].

ولهذا فالفلسفة الإلهية التي قدمها ابن تومرت لم تخرج عن هذا الإطار، إطار الإلوهية والتوحيد وكان له موقفه من هذه المسائل مع الفقهاء وأصحاب الفرق

---

(١) ابن حزم الظاهري الأندلسي ت٤٥٦هـ: الفصل بين الملل والأهواء والنحل. مكتبة السلام العالمية (١/ ٣٥)، (٤/ ١٦٩)، والطبعة الأولى- المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣٢١هـ ٨.

ابتداء من الأصول والفروع وانتهاء بالإلوهية والتوحيد.

وكانت هذه الفلسفة ذات أبعاد محددة هي البعد الديني والبعد الأخلاقي والبعد الاجتماعي والبعد العلمي.

ويتمثل البعد الديني عند ابن تومرت في التمسك بأصول الشريعة والأخذ بالرأي والتأويل ووضع دعامة أساسية هي أن العقل ليس له في الشرع مجال، ووضع مبادئ التوحيد وأنه لا توحيد بدون عقل.

وفي هذا الإطار أصبحت الفلسفة الإلهية هي فلسفة التوحيد أي الإيمان القوي بالله الواحد المنزه عن الجسمية والجهة وعن الشريك. وأكد لأتباعه أنه لا إيمان بلا توحيد لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار.

ولهذا فالبعد الديني يمثل عند ابن تومرت جوهر البنية الفكرية لفلسفته الإلهية فالإيمان بالله يتطلب المعرفة بحقيقته وقدرته وبطبيعته وبتنزيهه لأن الله تعالى هو المصدر الحقيقي لكل معرفة.

وبهذا استطاع ابن تومرت تضييق هوة التعارض الظاهري بين العقل والنقل أو النظر والعمل وبالتالي أصبح طبيعيا الأخذ بالعقل والشرع معا[١].

أما البعد الأخلاقي فقد تمثل في محاولة ابن تومرت الجادة لتغيير المناكر والتمسك والمحافظة على السنة وعدم الوقوف عند ظاهر النص[٢].

---

(١) CH. Andre Julien: Histoire deil'afrique du Nord Tunisie, Algerie, Moroc, de La conquete arabe Paris 1978- p.96-87-112

(٢) CH. Andre Julien: Histoire deil'afrique du Nord Tunisie, Algerie, Moroc, de La conquete arabe Paris 1978- p.96-87-112

وفي هذا الإطار استطاع ابن تومرت أن يؤكد على أن الفلسفة الإلهية هي الأم التي تجمع بين جناحيها قضايا الميتافيزيقا الإسلامية، فهي تجمع بين المعرفة والعلم والأخلاق من جهة وبين مباحث الوحدانية والصفات وقضايا الوجود والفاعلية من جانب آخر.

وبما أن مجال العبادات هو مجال التطبيق العملي للأوامر والتكاليف الإلهية فقد كان اتفاق الفرق على أن الإلوهية قائمة على التنزيه والواحدنية وأن الله الواحد الأحد ليس كمثله شيء، وأن البارئ منزه عن المادة وأغراضها وهو ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا جزء ولا كل، ولا يحده زمان أو مكان، ولا والد ولا ولد ولا تدركه الأبصار ولا يسمع بالأسماع ولا يشبه المخلوقات بحال [١].

أما البعد الاجتماعي في فلسفة ابن تومرت الإلهية فقد تمثل في الاعتقاد بضرورة العلم بالتوحيد والأخذ بالتأويل والقياس وبصحيح الأحكام ذلك من شأنه أن يساهم في حل قضايا الإنسان ويقرب بين الخلافات والآراء ويقدم الحلول المناسبة لهم.

ومن هنا يظهر أثر البعد الاجتماعي للتوحيد في تأليف القلوب وتوجيه الجموع إلى تحقيق هدف واحد مشترك مثل الجهاد والمجاهدة حين يتميز المجاهد الموحد بقوة الإيمان وصدق العقيدة، وعليه تقع مسئولية البناء الاجتماعي وتغيير المنكر وتحقيق أوامر الله وعدالته على الأرض، ولهذا يبدأ بمجاهدة النفس المجبولة على الجهل والهوى وقهرها ومجاهدة الشيطان وإثبات قدرة الله وعظمته وتنزيهه عن مخلوقاته، ثم عليه مسئولية التعاون والجهاد وتنفيذ الواجبات المأمور بها في القرآن وكل ما هو

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب. طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٢٤٢، ٢٤٣.

مكلف به تجاه مجتمعه ودينه.

بذلك يصبح التوحيد سفينة النجاة للأمة ووسيلة لتحقق أهدافها.

ويأتي البعد العلمي في فلسفة ابن تومرت الإلهية ليكون الكل الذي يضم الأبعاد الثلاثة السابقة الديني والأخلاقي والاجتماعي فهذه الثلاثة مؤسسة على العلم.

وفي هذا الإطار أكد ابن تومرت أن الفلسفة الإلهية هي فلسفة علم التوحيد الذي يضم علوم القرآن وأصول الدين وعلم الكلام ومباحثه في الإنسان والكون وأن فلسفة التوحيد لا بد أن تؤسس على العلم لأن العلم هو النور الذي تتميز به الحقائق والخصائص، وأن المهتدي هو الذي اهتدى بنور العلم من ظلمة الجهل ويمنعه العلم من الدخول في المعاصي والقبائح.

وأكد ابن تومرت أيضًا أن الفلسفة الإلهية تقوم على وجوب التصديق بالسمع والعقل معا وأن رابطة التوحيد والعبادة قائمة على العلم، حتى إن العلم بالتوحيد يجب أن يقدم على العبادة لأن العبادة مؤسسة بداية على المعرفة لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

ومن هنا كانت دعوة ابن تومرت إلى العلم والمعرفة بالأصول وإلى التفكر والاعتبار بما في النفس من قوى يمكن أن تحقق السلامة والخير للإنسان، والاعتبار بما في العلم من تلازم بين علم الباطن الذي هو علم الحقيقة وعلم الظاهر الذي هو علم الشريعة.

وما يزيد من أهمية هذا البحث أن الفلسفة الإلهية عند ابن تومرت فلسفة صادقة تهدف إلى نشر وتعميق مبادئ الدين الحقيقية والخاصة بالإلوهية وفي مقدمتها

الوحدانية والتنزيه والقضاء على مظاهر الشرك. وأن هدف الحكمة والشريعة واحد وهو العلم وتحقيق الخير للإنسان.

ومن هنا تبرز أهميتها في كونها دعوة إلى العلم والتنزيه فالتنزيه التام للوجود المطلق واجب على كل مكلف وعاقل. هذا الوجود الذي يصفه ابن تومرت بقوله:

«والوجود المطلق هو الذي ليس بمقيد ولا يخصص وهو القديم الأزلي الذي استحالت عليه القيود والخواص. ولم يتغير وجوده باختيار مخترع مختار ولم يتخصص بتخصيص مقدر مقتدر ولم يرتبط وجوده بوجود على الإطلاق ولا مسابقة قبلية ولا متابعة بعدية ولا مفارقة جمعية ولا ملازمة غيرية».

ولهذا فالعلم بوجود البارئ تعالى وصفاته عند ابن تومرت لا بد أن يكون بعيدا عن أي تجسيم أو تشبيه لأنه تعالى أول لا يتقيد بالقبلية آخر لا يتقيد بالبعدية أحد لا يتقيد بالأينية صمد لا يتقيد بالكيفية عزيز لا يتقيد بالمثلية.

والواقع أن هناك ميزة أخرى في فلسفة ابن تومرت الإلهية هي الانتصار للعقل والاهتمام به كجهاز ضروري للعلم لأنه لا يعرف العلم إلا به سواء علم ديني أو مادي. وكجهاز له دوره في توجيه السلوك وتقوية الإرادة والعقيدة للقيام بواجبات الشرع. لذا لا بد من توافره في المكلف لأنه شرط للتكليف والقيام بواجبات العبادة إذ العقل شرط لصحة العبادة والصلاة وأساس للإيمان لأنه لا تجب عبادة على غير العقلاء.

ومعنى انتصار ابن تومرت للعقل ليس معناه تقديمه أو الاهتمام به على حساب النقل ولكن معناه أنه أطلق قدرة العقل في العلم بالمحسوس وغير المحسوس والعلم بالإلوهية والشريعة ووصف العقل بأنه نور إلهامي عاقل لجميع الأشياء.

وانتصاره للعقل أيضًا لم يمنعه من تحديد مجالات لقدرة العقل لا يتخطاها فليس للعقل أن يتدخل في أوامر الشرع في الوقت الذي يؤكد على أن التوحيد والتنزيه بما يضمان من اعتقاد وعبادة وعمل كليهما مؤسس على العقل لأن طريق التوحيد هو العقل وكذلك التنزيه ولا طريق للتواتر فيهما[١].

وانتصار ابن تومرت للعقل معناه أن الفلسفة الإلهية عند مؤسسة على العقل فالعقل عنده ليس مجرد أداة للتفكير أو الحكم بل هو قوة عاقلة مستقلة ومسئولة؛ لأن على العقل تقع مسئولية العلم بالإلوهية وصفاتها وحقيقة الشريعة وأصولها، ولهذا ربط ابن تومرت بين مجالات عمل العقل وقدراته وطاقته على اكتشاف مختلف المجالات المتصلة بالمعرفة وهي:

المعرفة بالله وصفاته وتمايزه وتنزيهه والمعرفة بالحق والتفكر في الصواب وعاقبته والمعرفة بحقيقة الشريعة وتأييد ما جاء به النبي.

وعلى العقل أيضًا تقع مسئولية استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية واستخراج معانيها والوقوف على مقاصد الشرع وعلى العقل أيضًا تقع مسئولية القيام بواجبات الشرع لأنه في مقدمة شروط التكليف إذ إن عدم العقل يسقط التكليف.

ولهذا يدعونا ابن تومرت بإلحاح إلى معرفة طبيعة ووظيفة العقل خاصة وأن العقل أو الروح والنفس مجموعة من اللطائف والأنوار تنشأ عن أصل واحد هو نور العقل الكامل، وعن أصل الأرواح كلها وهو روح الأمر فالعقل نور شريف ألطف من الروح والنفس[٢].

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب. طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٤٧.

(٢) ابن تومرت: كنز العلوم والدر المنظوم. مخطوط بدار الكتب سنة ١٢٨٩هـ، ص٢٢.

وفي هذا الإطار كان على ابن تومرت أن يثبت للفقهاء وعلماء الكلام في عصره أن: العقل بجانبه الروحاني والإنساني يسمع ويرى لأنه نور إلهامى عاقل لجميع الأشياء أي جامع لها، وهو روح نوراني يشتمل على العلم والمعرفة والقدرة والإرادة الربانية ومن ثم فهو رسول من جملة الرسل وله دوره في خدمة الإنسان وتبصيره بحقيقته وحقيقة الأشياء من حوله وله دوره في المعرفة والدين والحياة وفي القضاء على كل جهل.

كما أثبت لهم أن الشريعة متضمنة للحكمة من طرق العلم الثلاثة وهي (الحس والعقل والسمع) وقال: «فالعلم الذي يأتي عن طريق السمع يقوم على القياس الشرعي وأما العلم الذي يأتي عن طريق العقل فيقوم على القياس العقلي، ولهذا لا فرق بين القياس العقلي والشرعي لأن القياس العقلي هو المساواة فيما يجب ويجوز ويستحيل والقياس الشرعي هو المساواة في الوجوب والتحليل والتحريم».

وهذه المقابلة بين القياسين عنده تعني أن الشريعة متضمنة طريق البرهان أي الحكمة وعلم الحكمة الشامل هو التوحيد.والتوحيد عنده هو أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل أنه العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير، هو أعز المطالب وأفضل المكاسب وأنفس الذخائر وأحسن الأعمال[1].

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب. طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص١.

الفصل الثالث
مؤلفات ابن تومرت

يلاحظ أن ابن تومرت ليس من المؤلفين المعروفين في تاريخ الفكر الإسلامي ومع ذلك فقد اهتم تلامذته بجمع مؤلفاته ونشرها بعد وفاته ومن أهمها:

١- كتاب كنز العلوم والدر المنظوم في حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة وهو مخطوط حتى الآن، وتوجد منه عشرة نسخ مخطوطة جميعها موجودة بدار الكتب المصرية تحت أرقام مختلفة [١].

ومن المرجح أن يكون هذا الكتاب من إملاءات ابن تومرت في الإسكندرية ما بين عامي ٥٠٥-٥١٠ هجرية تقريبا.

وهذه النسخ هي:

١- ١٠ق حكمة وفلسفة ٢٣م مصطفى فاضل.

٢- ٣٠ق حكمة وفلسفة ١٣م

٣- ٤٩ق حكمة وفلسفة ١٥٦.

٤- ٥٦ق حكمة وفلسفة ٤٤٢ د.ت.

---

(١) انظر عدة فهارس بدار الكتب المصرية: فهرس الكتب العربية، فهرس المخطوطات، فهارس الفلسفة- بدار الكتب المصرية مخطوط ص٢٥٦ رقم ١٥٦، ٠٢٣م، ١٨٠ مجاميع: الرسالة الثانية ص٤٢-٨٨ فنون متنوعة رقم ١، ٢، ٩٢، ٣٢٦.

٥- ٥٧ق حكمة وفلسفة ٤٤٤ خط وهبة بن محمد سالم ١٢٨٩هـ

٦- ٦٥ق معارف عامة طلعت ١٨٨ خط ١١٢٩هـ

٧- ١٠٤ق حكمة وفلسفة خط ٤٤٣- ١٣١٧هـ

٨- ١٢٤ق حكمة وفلسفة ٤١١- ١١٨٠هـ

٩- ١٥٨ص سالم تيمور ٤١.

١٠- ١٦٣ص طبيعة وكيمياء ١٢٤.

وكتاب كنز العلوم على حد قول ابن تومرت مختصر يعالج قضايا العوالم المختلفة من خلال عرض بعض الآراء في العلم والمعلومات مع التركيز على نوعين من العلوم هما علم الشريعة وعلم الطبيعة الذي هو علم الحكمة ومقصود الحكمة منه المعرفة.

وتعدد نسخ الكتاب في أوقات وأماكن مختلفة دليل على أثر ابن تومرت في الفكر الإسلامي وفي مصر على وجه الخصوص في هذه الفترة.

وقد قسم ابن تومرت هذا المختصر إلى خمسة أبواب رئيسية:

الباب الأول: في علم الشريعة والحقيقة. وهو يدور حول أصول الدين وعلم التوحيد كأفضل العلوم التي يرقى بها العارف إلى معرفة الله عز وجل فهذه المعرفة كما يقول ابن تومرت هي مقصود كل علم وثمرته ولباب لبابه.

الباب الثاني: في أصول علم الطبائع والمخلوقات. وهو يدور حول القدرة

الإلهية الخالقة والتنبيه على ضرورة التمييز بين الخالق والمخلوق.

الباب الثالث: في معرفة العقل والروح والنفس: وهو يدور حول وسائل المعرفة وفي مقدمتها العقل والحس وعلاقة الروح بالبدن وعلاقة العقل بالجسد.

الباب الرابع: في فضل الآدمي ومعرفة الخالق والخلايق من صورته وهو يدور حول نظرية الخلق الإلهي لآدم عليه السلام.

الباب الخامس: في استخراج العلوم الغامضة بسر الطبيعة وفيه عرض ابن تومرت لأهمية علم الطب والكيمياء وأثرها في علاج كثير من الأمراض الشائعة [١].

ويمكن القول: إن ابن تومرت في هذا المخطوط حاول عرض مقدمات فلسفته الإلهية التي ظهرت في إملاءاته فيما، بعد ورسائله في التوحيد والقياس وأنه عرض لأهم العلوم الغامضة وأفضلها وهو المعرفة بالله بوصفها مقصود كل علم وثمرته والمقصود من علم الشريعة هو الحكمة أي معرفة حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة، وفائدة ذلك تمييز الخالق من الخلايق وما ينزه به الله عما سواه فذلك هو حقيقة العلم وقصد المراد منه [٢].

٢- كتاب: أعز ما يطلب. وهو يضم مجموعة الرسائل والإملاءات التي كتبها ابن تومرت في المغرب العربي باللسانين البربري والعربي.

وفي هذه النسخة من إملاء ابن عبد المؤمن خليفة ابن تومرت والذي في عهده

---

(١) إسماعيل البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، المجلد الثاني، استانبول ١٩٥٥ ص٩٠.

(٢) خير الدين الزركلي: فهرس الأعلام (٧/ ٢)، دار الكتب المصرية ١٩٥٩، ص١٠٤، ١٠٥.

تسعت دولة موحدين وتوحد لشمال الأفريقي.

وهذا الكتاب يضم تعاليم ابن تومرت التي أراد أن يعلمها لأصحابه من مصادر الدين الرئيسية وهي القرآن والسنة بالإضافة إلى بعض الردود والمناظرات للرد على أصحاب الفرق في عصره، خاصة آراء الشيعة والخوارج والمعتزلة والأشاعرة ورجال الفقه الذين رفضوا التأويل والقياس.

وهذه الرسائل صورت مدى اهتمام ابن تومرت بعلم الكلام ومباحث الإلوهية، وكيفية الاستفادة منها في وضع أسس جديدة تساهم في بناء وإحياء الفرد والمجتمع الإنساني ككل.

هذا وقد استطاع المستشرق الفرنسي «جولد زيهر» جمع هذه الرسائل والكتب والإملاءات في مجلد واحد بعنوان: أعز ما يطلب، ونشر هذا المجموع في الجزائر عام ١٩٠٣ وهذا مع مقدمة وافية عرض فيها آراء المؤرخين المختلفة حول حياة وشخصية ابن تومرت من الناحية السياسية فقط.

وهذه الرسائل هي[1]:

١ - رسالة في القياس: وهي تدور حول التدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه وتحديد مجالات عمل العقل. وأشكال الأمر الإلهي. والقياس العقلي الشرعي.

وأضرب القياس الفاسد عند المجسمة والمعطلة وأصحاب الجهة واهتم فيها ابن

(١) ابن تومرت: محمد عبد الله بن تومرت أبو عبد الله، أعز ما يطلب يشتمل على جميع تعاليقه، مدينة الجزائر طبعة ١٩٠٣. مكتبة الجامعة رقم ٥٧٤٦/ ٣٠٧٣٢، ص١٦٣-١٧٣.

تومرت بعرض القياس الصحيح الذي هو تساوي الغيرين في الحكم.

٢- رسالة في العموم والخصوص وبعض المباحث الأصولية؛ وهي تدور حول كيفية نقل المعقول إلى المحسوس ليتبين ويتضح للمخاطبين وارتباط ذلك بمبحث الحقيقة والمجاز ووجوب الرجوع إلى اللغة والشرع إذ الشرع هو الغالب والقاهر والمرجوع إليه.

٣- رسالة في طرق العلم وأقسامه وبيان فضله؛ وفيها يعتمد ابن تومرت على الأدلة القرآنية التي تحث على العلم، فالعلم عنده أصل للنجاة ولا يتوصل إلى معرفة الطاعة والمعصية إلا بالعلم.

وفيها يحدد ابن تومرت أقسام العلم الثلاث وهي العلم بالدين والعلم بالدنيا والعلم بما يتوصل به إليهما.

٤- رسالة في تقسيم المعلومات وفيها يبين اختصاص المعلومات بالمعدوم والموجود والمقيد الذي يختص بالزمان والمكان أو بزمان دون غيره. وفيها أيضا تعرض لصفات الوجود المطلق وصفات الوجود المحدث المخلوق، فالموجود المطلق هو القديم الأزلي الذي استحالت عليه القيود والخواص ولم يتقيد وجوده باختيار مخترع مختار. ثم تعرض لأصل القول بالتنزيه والدليل العقلي عليه.

٥- رسالة في المحدث ومباحث من علم الكلام؛ وهي تدور حول تصور ابن تومرت للوجود الطبيعي المخلوق، لأن المحدث عنده هو المفتتح الوجود الذي وجب له الحد والانقضاء ووجب له الانحصار والافتقار ووجب له العجز والقصور عن الإحاطة بنفسه وكيفية وجوده ووجود غيره.

ومن المباحث التي اهتم بها ابن تومرت في هذه الرسالة مبحث الاستحالة ومبحث الفاعلية والتكليف والاستطاعة والغيرية وأحدية الذات الإلهية[1].

٦- رسالة في التوحيد والعبادة؛ وفيها تحدث عن العبادة ووجوبها وشروطها وتقاسيمها، ومن خلال هذه المباحث عرض ابن تومرت مستويات التفلسف في الإسلام التي يمارسها المسترشد الذي يسأل عن الحكم وعن الدليل. والمستفتى الذي يسأل عن الحكم والمناظر وما يجب على كل منهم في عبادة رب العالمين والإخلاص في عبادته، إذ إن العبادة لا تصح إلا بالإيمان والإخلاص ولا يصح الإيمان والإخلاص إلا بالعلم ولا يصح العلم إلا بالطلب ولا يصح الطلب إلا بالإرادة ولا تصح الإرادة إلا بباعث يبعث عليها والباعث هو الرغبة والرهبة، والرغبة والرهبة والوعيد والوعد والوعيد بالشرع، والشرع بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم بظهور المعجزة وظهور المعجزة بإذن الله سبحانه.

وبهذا يؤكد ابن تومرت على أن التوحيد الخالص لله في مقدمة شروط صحة العبادة.

٧- رسالة في فضل التوحيد والاستدلال عليه من طريق النقل. وفيها أورد ابن تومرت كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في فضل وجزاء الموحد وهو دخول الجنة.

وفيها يؤكد ابن تومرت أن بالعقل الراجح السوي يعلم توحيد الباري سبحانه..

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب، طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٢٠٨، ٢٧١.

وأن للعقول حد تقف عنده لا تتعداه وإلا وقعت في التكييف والتجسيم والتعطيل وذلك محال وما يؤدي إلى المحال فهو محال لشهادة الأفعال على وجود خالق الفرد بالاقتدار.

وأنه إذا علم وجوده تعالى على الإطلاق علم أنه ليس معه غيره في ملكه إذ لو كان معه غيره لوجب تقيده بحدود المحدثات لوجوب كون الغير المستقل منفصلا والخالق سبحانه ليس بمتصل ولا بمنفصل [1].

٨- رسالة في الإمامة ووجوب الاعتقاد بها؛ وفيها يؤكد ابن تومرت أن الإمامة ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة.

وفي هذه الرسالة قال ابن تومرت بعصمة الإمام من الباطل والضلال والفساد والفشل وأن يكون معصوما من الجور والبدع والكذب ومن العمل بالجهل وذلك لأن الإمام المعصوم يتصف بأضداد هذه الصفات.

وأشار إلى وجوب طاعته والأخذ بسنته والانقياد لأمره وحكمه وفعله وإباحة قتل من يخالفه.

٩- رسالة في القواعد والتكاليف؛ وهي القواعد إلتي بنى عليها علوم الدين والدنيا ومن هذه القواعد: أن الرسل حق وأن الدين حق وأن التكليف ثبت على جميع العباد، وأن الدين لا يثبت بالأقوال دون الأفعال ولا يرجع إلى الاختيار البشري. وأن الله لا يكلف بما لا طاقة به ولا يكلف بما لا سبيل إلى العلم به وأن الله

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب، طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٢٦٧، ٢٧١.

لا يكلف البشر بمعرفة الغيوب وأنه لا يكلف بالمشيئة وإنما يكلف بالأمر.

١٠- رسالة في بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين؛ وفيها حدد صفاتهم وكيفية مخاطبتهم ووجوب جهادهم ومعرفة أتباعهم، ثم أكد وجوب مخالفتهم وتحرير الاقتداء بهم أو التشبه بهم، واستدل ابن تومرت بآيات من القرآن تحث على الابتعاد عنهم ومقاومتهم مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ ﴾ [الممتحنة: ١]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠-١٢].

وأوجب ابن تومرت جهادهم لأنهم مفسدون ضيعوا السنة لعنادهم وارتكابهم المناكر والفجور[١].

١١- رسالة فيما بشر به النبي صلى الله عليه وسلم من أن طائفة من أمته لا تزال على الحق لأنها الأمة التي تقاتل على الحق وأورد ابن تومرت مجموعة الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك والتي تؤكد نصرهم وأن الله سينصر هذه الطائفة حتى تقوم الساعة[٢].

١٢- رسالة في ذم الخمر وعقوبة شاربها؛ وقد قسم ابن تومرت هذه الرسالة إلى عدة أبواب تدور حول إثبات وجوب تحريم الخمر بأنواعها وأشكالها وبيان مدى مضارها، منها باب في أن الخمر داء وليس فيها دواء، باب في أن الله لعن شارب الخمر وذكر ما أعد له من الذل والهوان وأليم العذاب.

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب، طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٢٥٥-٢٥٨.

(٢) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

باب في تحريم الخمر بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

باب في معرفة الخمر المجمع على تحريمه المنزل في الكتاب.

باب في تسمية ما يتخذ من القمح والشعير خمرا وتحريم قليله وكثيره وانعقاد الإجماع على ذلك.

باب في إراقته وكسر الأواني وتحريم الانتفاع به ونجاسته.

وبعد أن فرغ ابن تومرت من هذه الإملاءات والرسائل قدم مجموعة من الكتب تدور حول تطبيقات مبادئ التوحيد والتنزيه في مجال العبادات والحياة اليومية. ومن هذه الكتب التي تضمنها مجموع أعز ما يطلب:

١- كتاب في التوحيد؛ وفيه تحدث ابن تومرت عن معنى التوحيد وفضله ومعرفة طريق إثبات العلم بالتوحيد وعلاقة ذلك بالإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الكتاب أكد ابن تومرت على أن: التوحيد هو إثبات الواحد ونفي ما سواه من إله أو شريك أو ولي أو طاغوت، فكل ما يعبد سواه يجب نفيه والكفر به.

وأن التوحيد قول وفعل: قول لا إله إلا الله شهادة تمنع قائلها من دخول النار والفعل في أن التوحيد هو الحق وأن اتباع غير التوحيد هو باطل وضلال.

وأن التوحيد هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وأن دين الأنبياء واحد.

وأن إثبات العلم بالتوحيد يكون عن طريق العقل إذ بضرورة العقل يعلم

توحيده سبحانه[1].

٢- كتاب في عقيدة المرشدة: وهو ما سمي بكتاب المرشدة في التوحيد. وفيه يبين ابن تومرت المجالات المختلفة للتوحيد من حيث الذات والصفات والعبادة وعلاقة الذات والصفات بالأسماء.

وفي هذا المؤلف حاول ابن تومرت التأكيد على مجموعة من الحقائق منها:

أ- إذا علم نفي التشبيه بين الخالق والمخلوق علم وجود الخالق سبحانه على الإطلاق.

ب- إذا علم وجوده تعالى على الإطلاق علم أنه ليس معه غيره في ملكه.

ج- إذا علم انفراده بواحدانيته على ما وجب له من عزته وجلاله علم استحالة النقائص عليه.

د- إذا علم انفراده سبحانه بالعدل والإحسان علم أنه تعالى يهدي ويضل ويعز ويذل وأنه لا مدبر سواه ولا مالك غيره.

هـ- أنه تعالى وجب له الوجود على الإطلاق من غير تقييد ولا تخصيص ولا هيئة ولا حال.

و- أنه من الأوامر الواجبة على كل مكلف أنه يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه وأن جميع الخلائق مقهورون بقدرته.. ليس له قبل ولا بعد ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا كل ولا بعض.

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب، طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص ٢٧٠-٢٨٠.

ز- أنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قادر على ما يشاء له الملك والفناء وله العزة والبقاء وله الحكم والقضاء وله الأسماء الحسنى.. لا يتقيد بالزمان ولا يتخصص بالمكان ولا يلحقه وهم ولا يكيفه عقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والواقع أن عقيدة المرشدة كانت في مقدمة تآليف ابن تومرت التي أحدثت تأثيرا قويا في مختلف أقطار العالم الإسلامي وقتذاك[1].

وأهمية العقيدة المرشدة تكمن في احتوائها على آرائه في التوحيد والقياس ورد ابن تومرت على المعتزلة وظهر فيها ابن تومرت بسلفيته، حتى إن الشيخ السبكي صاحب الطبقات الكبرى وصفها بأنها كانت عقيدة سنية خالصة وأشار إلى أثرها ودورها في تدعيم المذهب الأشعري في بلاد المشرق قبل بلاد المغرب.

وعلى الرغم من أن البعض قد رأى أن المرشدة أحدثت أثرا سيئا في أهل مكة والحجاز قد رأى آخرون أنها تسير على المنهاج القويم والعقد السليم المستقيم وأن ابن تومرت قد أصاب فيما نزه به الله العلي العظيم.

وأكد الشيخ السبكي أن المرشدة كانت تدرس في مدارس الشرق ويقوم عليها علماء مثل الإمام فخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية في وقت في الشام كما كانت تدرس في المغرب أيضًا وكان عليها شيوخ من كبار شيوخ المذاهب قديما.

---

(١) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين وتراجم مصنفي الكتب العربية ج١٠- مطبعة الترقي بدمشق ١٩٦٠- دار الكتب المصرية ص٢٠٦. وانظر الفصل الأخير من هذا البحث حيث نعرض لموقف ابن تومرت النقدي وأثر مؤلفاته ورأي رجال الفكر والتاريخ فيها.

٣- كتاب الصلاة:

وهذا الكتاب يتألف من حوالي مائة صفحة، وبالتالي فهو يمثل جزءا كبيرا من أعز ما يطلب، واهتمام ابن تومرت بموضوع الصلاة يرجع إلى اهتمامه بالأصول وما بني الإسلام عليه؛ إذ الصلاة هي الركن العملي التالي للتوحيد مباشرة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج لمن استطاع»[١].

ولقد قسم ابن تومرت الكلام في الصلاة إلى ثلاثة فصول تدور حول معناها وفضلها وتفاصيلها وفي الفصل الأول تحدث عن معناها اللغوي والشرعي وفي الفصل الثاني عن الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على فضلها وفي الفصل الثالث عن أدلة انحصارها بين الغرض وغير الغرض.

ثم تحدث عن أدلة وجوبها وشروط صحتها وفائدة تحققها والالتزام بشروطها وأثر ذلك على سلوك الفرد وصحته وابتعاده عن المحرمات ونحو ذلك. ويؤكد ابن تومرت على أن الصلاة مجال التطبيق ونقطة التقاء التوحيد بالعبادة ودليل تنفيذ الأوامر الإلهية، وبين ابن تومرت أسباب سقوط التكليف ودور العقل والاختيار فيما أمر به الشرع وتنفيذه. فالتكليف ساقط مع عدم العقل والاختيار وحال السهو والنسيان[٢].

٤- كتاب الطهارة:

وفيه تحدث ابن تومرت عن الطهارة وفضلها وأن الطهارة مرتبطة بالصلاة

---

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب الإيمان.

(٢) ابن تومرت: أعز ما يطلب- طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٦٣-١٦٣.

والإيمان وصحة البدن، فهي على الوجوب لصدور الأمر باستعمال الماء في الطهارة والصلاة، وأنها شرط لصحة الصلاة، والأحاديث عديدة في وجوب الطهارة لقوله عليه السلام: «لا تقبل صلاة من أحد حتى يتوضأ» وقوله عليه السلام: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور»[١].

والطهارة والصلاة تؤكدان صحة اعتقاد العظمة لله والتنزيه له سبحانه لأن القرآن والحديث كليهما يبين ما للطهارة من فضل في التنبيه إلى ذكر الله وشكر نعمه لقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [الأنفال: ١١].

٥- كتاب الجهاد وما ورد فيه من الثواب:

وفيه ذكر ابن تومرت الآيات التي تدور حول الترغيب في الجهاد وبيان الجزاء المحقق للمجاهد وهو دخول الجنة.

وبعد أن أورد ابن تومرت مجموعة من أمثلة الجهاد في صدر الإسلام تحدث عن فضل الشهادة في سبيل الله وأورد الأحاديث والآيات في ذلك ثم بين أنواع الجهاد وكيف يكون الجهاد ووسائله.

ويعتبر كتاب الجهاد هو آخر ما كتب ابن تومرت وبه ختم أعز ما يطلب، فقد جاء في خاتمة أعز ما يطلب ص٤٠١:

---

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب- طبعة الجزائر، ص٥٠، ٢٨٠.

«تم كتاب الجهاد بحمد الله وحسن عونه، وبتمامه كمل جميع تعاليم الإمام المعصوم والمهدي المعلوم رضي الله عنه مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أدام الله تأييدهم وأعز نصرهم ومكن سعودهم وذلك في العشر الأواخر من شعبان المكرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة»[1].

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب- طبعة الجزائر ١٩٠٣، ص٤٠١.